

الفصل الخامس

إنجلترا في عصر أسرة تيودور

[١٤٨٥ - ١٦٠٣]

تبدأ إنجلترا تاريخها الحديث قبل أى دولة أوروبية أخرى^(١) فى حين أن العديد من دول أوروبا تبدأ تاريخها بعصر النهضة فإن الانجليز يبدلون تاريخهم بفتح النورمانديين لبلادهم فى عام ١٠٦٦ م ، ويستندون فى ذلك إلى أن استيطان النورمانديين فى إنجلترا وامتزاجهم مع شعبها قد نتج عنه تكوين الشعب الانجليزى الحديث الذى امتدت أملاكه إلى العديد من دول أوروبا وخاصة فرنسا.^(٢)

ونتيجة للتنازع على عرش إنجلترا قامت بها حرب أهلية أطلق عليها "حرب الوردين" ١٤٥٥-١٤٨٥ م نسبة إلى شعار الأسترين المتنازعتين على العرش، فكانت الوردة البيضاء شعار أسرة يورك، والوردة الحمراء شعار أسرة لانكستر وتمكنت أسرة يورك من الاستيلاء على الحكم، وبدأت فى اضطهاد معارضيهى بقسوة شديدة، مما جعل الشعب الانجليزى ينفر منها ويقوم بمؤازرة أسرة لانكستر حتى مكنتها من الوصول إلى العرش عقب موقعه "بوزورث" عام ١٤٨٥.

وقد استطاع " هنرى ثيودور " مؤسس هذه الأسرة والذى أطلق على نفسه " هنرى السابع " أن يقود بلاده فى فترة من أصعب فترات حياتها، فنجح فى إنهاء الحروب الإقطاعية، وأوقف المغامرات الخارجية التى كانت بلاده قد انغمست فيها، وعقد معاهدة تحالف مع إسبانيا، كما أقام روابط مصاهرة مع ملكها.

ونتيجة لحركة الكشوف الجغرافية والمغامرات البحرية التى بلغت أوج قوتها فى ذلك الوقت، ونتيجة أيضا لاهتمام " هنرى السابع " بتشجيع تجارة بلاده وتمييزتها شهدت إنجلترا رخاء اقتصاديا لم تعرف له مثيلا من قبل.

(١) أن قرب إنجلترا من قارة أوروبا وانفصالها عنها فى آن واحد كان له أكبر الأثر فى تعيين الاتجاه الذى سارت عليه هذه الدولة.

(٢) لم يستطع الانجليز المحافظة على ممتلكاتهم فى فرنسا وبخاصة بعد حرب المائة عام وما قامت به " جان دارك " من بطولات نادرة ألهمت حماس مواطنيها.

وإلى جانب ذلك فقد ساعد هنرى على إنعاش حرية الفكر فى بلاده بتشجيعه لحركة النهضة وإحياء العلوم والإصلاح الدينى كما عمل على تنظيم الإدارة الحكومية حتى بلغت درجة عالية من الكفاءة.

وهكذا انصرف الإنجليز عن خلافاتهم السياسية، وبدأوا يعيشون عصرهم فى ظل ملك قوى استطاع أن يقضى على الفوضى والاضطراب اللذين انتشرا فى بلاده خلال الحرب الأهلية كما كانت له اليد الطولى فى إدارة شئونها دون أن يعبا بسلطة برلمان أو غيره.

ولكى يقوم هنرى بتدعيم الملكية على أسس قوية ويحد من سلطة النبلاء الذين قامت حرب الوردتين بسببهم قام بإصدار عدة قوانين كان من أهمها "قانون غرفة النجم" عام ١٤٨٧م والذى ينص على مراقبة النبلاء والعمل على الحد من نفوذهم وقانون آخر يقضى بمحاكمة معارضى الملك بتهمة الخيانة، وقانون ثالث يحرم على النبلاء جمع الأتباع والأنصار بغرض زيادة نفوذهم. يضاف إلى ذلك القانون الذى شدد قبضة الملكية على شئون الصناعة. وبهذه القوانين وما شابهها تمكن هنرى السابع من تأسيس ملكية قوية تحكمت بقبضتها على زمام الأمور فى إنجلترا، مما أدى إلى تفرغ الشعب الإنجليزى لنهضة بلاده.

هنرى الثامن وحركة الإصلاح الدينى: [١٥٠٩-١٥٤٧]:

خلف هنرى الثامن والده فى حكم إنجلترا عام ١٥٠٩ ويختلف عهده عن عهد أبيه اختلافا واضحا، ففي حين كان الإنجليز قد سئموا عهد والده لأنه لم يحقق لإنجلترا أى مكاسب دولية، فقد رحبوا بحكم ابنه الذى كان لديه تطلعات واسعة فى رفع رايات النصر لبلاده وجعلها قوة دولية لها مكانتها وهيبتها، فعمل على بناء أسطول قوى لإنجلترا، وأنشأ أحواضا لبناء السفن ومدرسة للبحارة ونجح فى إجبار فرنسا على دفع إتاوة سنوية لبلاده بعد انتصاره عليها، وناصر أسبانيا ضد فرنسا فى الحلف المقدس ١٥١١، وقام بتأديب الاسكتلنديين الذين حاولوا غزو بلاده، وقام بتوحيد شمال إنجلترا وجنوبها، يضاف إلى ذلك رفضه وصاية البابوية على بلاده وتشجيعه لحركة الإصلاح الدينى، واستصداره القوانين التى ساعدت على نشر المذهب البروتستانتى فى إنجلترا، وأدت إلى فصل الكنيسة الإنجليزىة عن كنيسة روما، واتخاذها طريقا وسطا وقيام الاضطرابات والمظاهرات العادية للبابا ولم يكن ذلك بوازع دينى من جانبه حيث أنه كان معروفا بمعارضته لحركة لوثر وكارها لها منذ ظهورها لدرجة أن

بابا روما منحه لقب حامى العقيدة لكتابته بحثا طعن فيه على لوثر وأفكاره، بل كان لأسباب سياسية وشخصية مجضة جعلته يلقي بكل ثقله لتأييد حركة الإصلاح الدينى، وأهم هذه الأسباب هى:-

- ١- رغبته فى التخلص من نفوذ كنيسة روما، حتى يكون الحاكم الأعلى لإنجلترا سياسيا ودينيا، وأن يكون كل السلطان فى يده.
- ٢- رغبته فى التخلص من زوجته كاترين الأرجونية أرملة أخيه الأكبر * آرثر وابنه الملك "فريد ناند" ملك أسبانيا والزواج من وصيفتها * آن بولين Anne Boleyn الذى أغرم بها ورغب فى أن ينجب منها طفلا ذكرا يتولى الحكم من بعده وخاصة أن كاترين لم تنجب له سوى ابنته ماري. ولما كان ذلك العمل يعتبر منافيا للقوانين الكنسية فى روما خصوصا وأن الطلاق محرم لدى الكاثوليك فقد كانت هذه الخطوة الخطيرة تلزم موافقة البابا، ومع أن الباباوات غالبا ما يستجيبون لرغبات الملوك خفية، فإن الوضع كان يختلف فى هذه المرة حيث كان البابا "كلمنت السابع" يعيش فى ذلك الوقت تحت سيطرة "شارل الخامس" ملك أسبانيا وشقيق زوجة الملك هنرى ويخشى أعضائه ونتيجة لذلك لم يستطع هنرى الحصول على موافقة البابا بطلاق "كاترين".

ولما تعقدت المسألة اضطر الملك هنرى إلى اتخاذ عدة قرارات ضد كنيسة روما فقد اختار "توماس كرومويل Thomas Cromwell" أكبر وأشد أنصار قطع جميع الروابط بين كنيسة إنجلترا وكنيسة روما، وجعلها تحت رئاسة ملك إنجلترا للعمل ككاتب عنه فى شئون الكنيسة، وقد قام "كرومويل" بمساعدة الملك فى التخلص من سياسة الكنيسة الباباوية وتحقيق مآربه فى الطلاق من كاترين والزواج من آن بولين وبثلاث أخريات فيما بعد، والاستيلاء على الأموال الخاصة بكنيسة روما فى إنجلترا، وببسط سلطاته الدينية والدنيوية على بلاده ومنع إرسال الأموال السنوية إلى البابا وعلى الرغم من ابتهاج معظم الإنجليز لهذه الخطوة فقد رفضها الكاثوليك المتعصبون، وقاموا بثورة فى شمال إنجلترا ضد الملك "هنرى الثامن"، ولكنه استطاع القضاء عليها والسيطرة على الموقف.

وهكذا ظهر الإصلاح فى إنجلترا بشكله السياسى والدينى، وساعد على ذلك رغبة الشعب الانجليزى فى وضع حد لمفاسد الكنيسة الكاثوليكية، وخاصة بعد أن ظهرت جماعة

مصلحي اكسفورد التي أبرزت استغلال الباباوية لبلادهم في بيع صكوك الغفران، والحصول على مكاسب ضخمة نتيجة لذلك، ورغبتهم أيضا في الاستقلال بشئونهم عن أية سيادة أجنبية أو وصاية وبخاصة لأن الباباوية في نظرهم كانت تمثل سلطة أجنبية عنهم.

وعلى كل حال فقد ترك الشعب الإنجليزي لمليكه أمر اختيار السياسة الدينية، وقد ساعد الملك على ذلك أن البرلمان بمجلسيه كان خاضعا له فأصدر تشريعاته الملائمة لرغبات الملك والمؤيدة للاستقلال عن الكرسي البابوي والاحتفاظ بالأموال التي كانت ترسل لروما كل عام فصدر قانون السيادة العليا الذي يعتبر الملك هو الرئيس الأعلى للكنيسة الإنجليزية القومية، وخوله كل السلطات التي يتمتع بها الباباوات، كما ألغى ما كان للبابوية من سلطة في المسائل الكنسية.

ونتيجة لذلك استطاع الملك "هنري" أن يحقق استقلال الكنيسة الإنجليزية وأن يكون رئيسها الأعلى، كما استطاع أن يحقق رغبته في طلاق "كاترين"، والزواج من "آن بولين"، وأن يملأ خزانته بالأموال التي كانت تندفق من إنجلترا على كنيسة روما.

وهكذا يتضح أنه على الرغم من أن حركة الإصلاح الديني في إنجلترا كان مبعثها أسبابا شخصية فإنها ساعدت على ازدياد قوة الملكية وتهينة متطلباتها من وسائل الأبهة والقوة، وأكدت المبدأ الذي نادى به هنري الثامن بأن السلطة الملكية لا تتجزأ ولا تقبل القسمة.

وفي عام ١٥٤٧ توفي هنري الثامن وخلفه ابنه إدوارد السادس من زوجته الثالثة "جين سيمون".

إدوارد السادس وموقفه من البروتستانتية: [١٥٤٧ - ١٥٥٣]

كان قاصرا عند توليه الملك حيث لم يزد عمره عن العاشرة مما جعل المجموعة البروتستانتية المحيطة به برئاسة عمه "إدوارد سيمون" والذي أنعم عليه بلقب "دوق أوف سمرست" تسيطر على زمام الأمور، وتسير بحركة الإصلاح الديني شوطا بعيدا فصارت ما تبقى من أموال الكنيسة، وأدخلت المذهب البروتستانتي إلى البلاد في آن واحد كما تقلبت التغيير في العقيدة الكاثوليكية بالغاء طقوسها وتحطيم الصور والتماثيل الدينية وإباحة زواج القساوسة وإلغاء كل القوانين التي أدت إلى اضطهاد البروتستانت أو الإساءة إليهم.

وإصدار كتاب الصلوات العامة بالإنجليزية، وهو الكتاب الذى طبعته الكنيسة البروتستانتية بطابع قومي عام ١٥٤٩، وجعل الصلوات الجديدة جامعة مما أحدث عصيانا دينيا فى جنوب غرب إنجلترا.

ونتيجة لهذه التغيرات قامت اضطرابات عنيفة داخل إنجلترا بين الفلاحين الكاثوليك بالأقاليم الغربية، كما قامت ثورات أخرى نتيجة لظهور شبح البطالة والتآمر من ارتفاع الأسعار، ويرجع ذلك إلى قيام أصحاب الحقول بإغلاقها، وتحويلها إلى مراعى للأغنام للاستفادة من صوفها بدلا من زراعتها، ومن هنا طردوا الفلاحين الصغار من أراضيهم وأحاطوها بأسوار، وبذلك تحولت مساحات كبيرة من الأراضي الزراعية إلى حقول مسورة لتربية الأغنام مما أدى إلى اشتداد البطالة وارتفاع الأسعار وتسبب فى غضب الرأى العام على الملك إدوارد وإتهامه بجمع ثروة طائلة من أموال الكنيسة. وزاد الأمر توترا محاولات الملك إدوارد السادس تغيير نظام الوراثة بحجة أن خليفته الشرعية على العرش "مارى" كاثوليكية متعصبة، كما أنها ابنة غير شرعية للملك. ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل، وتولت "مارى تيودور" الحكم بعد وفاة الملك إدوارد.

مارى تيودور^(١) [١٥٥٣ - ١٥٥٨]

تسلمت مارى ابنة هنرى الثامن من زوجته الأولى "كاترين الأرجونية" الحكم فى عام ١٥٥٣م، وقد دفعها تعصبها للكاتوليكية الى اعادة حق الكتلكة فى العبادة الإنجليزية والقضاء على كل ما تم من إصلاح فى عهد "إدوارد السادس" مما قلب الأوضاع فى إنجلترا رأسا على عقب وزاد من اضطراب أمورها. وكان من أول قراراتها استبدال الأساقفة البروتستانت بكاثوليك وإعادة العلاقات مع روما وإلى جانب ذلك قامت باضطهاد المخالفين للكاتوليكية، فأحرقت أكثر من مائة من الأساقفة البروتستانت أحياء ومنهم الأسقف "كرامر" الذى بارك زواج والدها من "آن بولين" وأمرت بالغاء كتابى الصلوات المعمول بهما هذا الى جانب انها وافقت على الزواج من "فيليب الثانى" ملك أسبانيا الكاثوليكي فى عام ١٥٥٤ مما ساعد على

(١) عاشت هذه الملكة شبابها المأساوى الذى لم تنق خلاه قط طمعا للسعادة، وفى الثامنة من عمرها أعطى والدها بطلان زواج أمها، وفى الخامسة عشرة من عمرها افترق والدها عنها، وأعلن انها ابنة سفاح وتم تجريدها من لقبها كاميرة بعد مولد اختها اليزابيث، ثم استرضاهما والدها بعد ذلك. للتفاصيل انظر: ول ديورانت: قصة الحضارة، ج٤، المجلد السادس، ص ١٥٤.

جعل إنجلترا في قبضة أسبانيا وألغت القوانين المعادية للباباوية منذ عهد هنرى الثامن مما زاد من غضب الشعب الإنجليزي عليها خصوصا وأنه كان يرنو إلى الاستقلال بشئون بلاده عن كل من أسبانيا والباباوية وأصبح يخشى أن يؤدي هذا الزواج إلى تحويل إنجلترا إلى بلد تابع لأسبانيا، ويورط إنجلترا في حروب مع فرنسا لا ناقة لها فيها ولا جمل. ونتيجة لذلك ارتفعت أصوات الاحتجاج ضدها، ولكنها قاومت معارضيتها بشدة لم يسبق لها مثيل من التكتيل والإرهاب لدرجة أن أطلق عليها البعض اسم ماري "الدموية" ويبدو أن اضطهادها لمعارضيتها أدى إلى زيادة أنصارهم خاصة بعد ما لمسوا شجاعة واستيسال البروتستانت أمام الموت.

وعلى الرغم من أنها كانت ترغب في أن تلد ابنا من فيليب، فإن شعبها كان يخشى أن يكون ثمرة زواجها من الملك الأسباني إنجاب طفل تجرى في عروقه الدماء الأسبانية، ويصبح بعد ذلك وليا لعهد إنجلترا، ولكن من حسن حظ الإنجليزي أن "ماري" كانت عاقراً مما هدأ من روعهم وأزاح عنهم كابوسا كان يقض مضاجعهم.

ورغبة من ماري في تلبية رغبة زوجها قامت بجر بلادها في حرب ضد فرنسا من أجل مصالح اسبانيا، مما جلب على إنجلترا أoxم العواقب حيث انتزع منها الفرنسيون ميناء "كاليه" عام ١٥٥٨ ونتيجة لذلك ضج الشعب الإنجليزي من حكم ماري الذي ارتبط في ذهنهم بالقتل وسفك الدماء والتضحية بمصالح بلادهم في سبيل أسبانيا وعلى كل حال فقد أبتسم الحظ للإنجليز بأن تكون خليفة هذه الملكة على العرش هي أختها "اليزابيث"، ابنة "آن بولين".

الملكة اليزابيث (الياصابات) [١٥٥٨ - ١٦٠٣]

يعتبر عصر الياصابات من أزهى العصور في تاريخ بريطانيا الحديث حيث استطاعت بنكاتها ودهاتها إعادة روح الانسجام بين الشعب الإنجليزي التي طحتة الاضطرابات الدينية خصوصاً بين الكاثوليك والبروتستانت وبخاصة أنها لم تكن متعصبة لأي طرف من الأطراف، وعلى الرغم من أن هذه المهمة لم تكن سهلة فقد نجحت فيها إلى حد كبير.

وفي عهدها ازداد البرلمان البريطاني قوة واتسع دوره وتوطد نظام الكنيسة الانجليكانية بعد أن بعثت إلى الوجود الإصلاحات التي قام بها والدها "هنرى الثامن"، وازدادت قوة بريطانيا البحرية بحيث أصبحت سيدة البحار بلا منازع كما ظهر في عهدها

العديد من الشخصيات الأدبية والروائية التي أنعشت الروح الأدبية في بريطانيا وكان على رأس هؤلاء "وليم شكسبير" الذي يعد من منجزات ذلك العصر .

وعلى الرغم من أن اليزابيث لم تكن متمعة في النواحي الدينية فقد استطاعت صيغ بريطانيا بطابع مميز فصلت كنيسة بريطانيا عن كنيسة روما، وأعدت كتاب الصلوات البروتستانتية، ووضعت من القوانين ما يتيح لملك بريطانيا السيادة على جميع الشؤون الدينية والزمنية معا ومعالجة كل من يقبل أى تعاليم من جهة أخرى، كما أدخلت العديد من التعديلات على نظام العبادة، بحيث أصبح نظام الكنيسة الانجليكانية بروتستانتى العقيدة كاثوليكي المظهر مما قرب وجهات النظر بين إنجلترا واسكتلندا ولما لم يرض المتطرفون من الكاثوليك عن هذه التعديلات استغاث بعضهم بالملك " فيليب الثانى" ملك أسبانيا لإنقاذهم من هذا النظام، وطالبوه بالتدخل فى الأمور، وعلى الرغم من أن إنجلترا كانت ترغب فى تجنب الصدام العسكرى مع أسبانيا فقد أرسل ملك أسبانيا أسطوله (الأرمادا) إلى إنجلترا فى عام ١٥٨٨م فى محاولة لتخليص الكاثوليك من النظام الانجليكانى، وخلع اليزابيث لتخلفها على العرش ابنه فيليب الثانى.

وقد قبلت إنجلترا التحدى، ووقفت اليزابيث بجانب جنودها ترفع من روحهم المعنوية وتدعوهم إلى الثبات حتى استطاع الأسطول الانجليزى الصغير الحجم تحطيم الأسطول الأسباني الذى باركه البابا فى معركة رهيبة عند القتال الانجليزى، ولم ينج منه سوى أربع وخمسون سفينة ألت عليها العواصف العاتية وجعلتها فى عداد التالفة. ونتيجة لذلك انهارت آمال الكاثوليك الإنجليز فى مساعدة أسبانيا لهم التى أذنت شمسها بالمغيب، وخرجت بريطانيا ظافرة منتصرة ليس فقط فى النواحي الحربية والسياسية ولكن أيضا فى القضاء على العقبات التى كانت أمام تحويلها إلى البروتستنتية.

